الإمبريالية والهوية الثقافية وكرة القدم: كيف أنشأت الإمبراطورية البريطانية الرياضة الوطنية المصرية*

عرض كتاب

سالى عاشور **

مقدمة

يحاول هذا الكتاب بحث العلاقة بين متغيرات ثلاث استخدمتها الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية وهى الإمبريالية والهوية الثقافية وكرة القدم، ونمو نزعة الروح الوطنية المعادية للاستعمار والاحتلال الإنجليزى، وذلك من خلال دراسة لعبة كرة القدم فى مصر وكيف ظهرت؟ والدور الذى لعبته كرة القدم فى نمو الحركات القومية خلال فترة الاحتلال البريطانى لمصر على مدار الأعوام من (١٨٨٢-١٩٥٦)، وكذلك استخدام بعض الساسة لكرة القدم- كرياضة وطنية- لتحقيق أغراض سياسية، وتتبع الاستخدامات المتعددة لهذه الرياضة فى عملية التحول السياسى فى مصر على مدار فترات متباينة منذ الاحتلال البريطانى وأثناء ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١، وحتى ثورة الثلاثين من يونيو عام ٢٠١٣.

ففى فترة المد الاستعمارى الإمبريالى لبريطانيا العظمى إبان الثورة الصناعية فيها شهد احتلالها لمساحات واسعة من العالم وفرض سيطرتها على مساحات واسعة

---

* Christopher Ferraro, Imperialism, Cultural Identity, and Football: How the British Empire Created Egypt's National Sport, 2015.

ترجمة الدكتور وليد رشاد، المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠٢٠.

** مدرس علوم سياسية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

من العالم لجلب المواد الخام من مستعمراتها فى هونج كونج والهند وسنغافورة، ونيوزيلندا، وإسكتلندا، ومصر وزنجبار لتشغيل المصانع فى بريطانيا. وكذلك نزوع المستعمر البريطانى إلى فرض ثقافته على المستعمرين والسكان المحليين، ومحاولة فرض نموذج ثقافى واحد بين شعوب المستعمرات، وكانت كرة القدم أحد أشكال النماذج الثقافية التى سعى المستعمر إلى استخدامها، ولكنها تحولت من مجرد لعبة إلى أداة من أدوات التغيير السياسى نتيجة لدورها فى تنمية الحركات القومية فى مستعمرات الإمبراطورية البريطانية المختلفة.

يستعرض الكتاب من خلال جزأين رئيسيين: يتناول **الجزء الأول** المفهوم البريطانى عن الذات فى منتصف القرن التاسع عشر، متضمنا تطور الرياضات الجماعية، ولاسيما كرة القدم، وكذلك دور المتعلم الجامعى فى الإمبراطورية البريطانية. وتطور لعبة كرة القدم وصعودها للجماهير، وكذلك تطور كرة القدم العسكرية داخل بريطانيا وخارجها، وذلك من خلال دراسة التحولات الاجتماعية والسياسية التى شهدتها بريطانيا من خلال تناول وتتبع التغيرات فى أربع مؤسسات رئيسية هى:

- المؤسسة التعليمية وتشمل المدارس والجامعات.
- المؤسسة الدفاعية وتشمل وحدات وإدارات الجيش البريطانى.
- المؤسسة الاقتصادية وتضمن بالتحديد المصانع إبان الثورة الصناعية.
- المؤسسة الدينية، أى الكنيسة.

أما **الجزء الثانى** فيدرس التغيرات التى أحدثها الاستعمار البريطانى لمصر من حيث نشر وصعود التعليم البريطانى فى البلاد، وعواقب الحرب الأنجلو مصرية، ويلقى نظرة خاصة على دور المهندسين الملكيين فى نشر اللعبة فى الجيش البريطانى وجميع أنحاء مصر، بالإضافة إلى دراسة تنامى نوادى كرة القدم المصرية وارتباطها بالحركات القومية.

هذا وقد تناول **الفصل الأول** "الرياضة فى إنجلترا الفيكتورية" نمو كرة القدم فى إنجلترا وتطورها خلال القرن التاسع عشر، ويقدم الفصل استبصارات حول تساؤل مفاده: كيف أصبحت كرة القدم الرياضة الوطنية فى إنجلترا؟ وفى سبيل الإجابة عن هذا السؤال فقد تم الاعتماد على كتب التاريخ التى كانت تدرس فى المدارس العامة فى تلك الفترة. ويتناول هذا الفصل بداية كرة القدم كلعبة للرجل المثقف ثم سرعان ما تغيرت فيما بعد، ومثلت وسيلة من وسائل جذب الأطفال إلى المدارس فى العصر الفيكتورى عقب قرار البرلمان البريطانى إلزامية التعليم للأطفال كنتيجة لتزايد عمالة الأطفال داخل المصانع أبان الثورة الصناعية. وقد تلا ذلك أن بدأت المدارس فى اللعب بشكل إلزامى وظهر دورى المدارس. ثم انتشرت لعبة كرة القدم فى الجامعات الفيكتورية وظهر أول دورى للجامعات فى نهاية القرن التاسع عشر. كما شجعت فلسفة حركة المسيحية القوية؛ تلك الفلسفة التى تعتقد بأن المشاركة فى الأنشطة الرياضية الجماعية ترتبط بمجموعة من القيم أبرزها تعلم العمل الشاق، واللعب النظيف، وهى قيم مهمة بالنسبة للنشء. كما لعبت عدة عوامل دورها فى تطور فرق كرة القدم داخل المصانع: أولها، قيام النقابات والتنظيمات العمالية بخفض ساعات العمل تدريجيا، وثانيهما، زيادة أجور العمال، وثالثهما، العمل لنصف الوقت يوم السبت من كل أسبوع. وقد أدى ذلك إلى قيام العديد من المصانع بتأسيس فرق لكرة القدم من بينها فريق وليتش أرسنال والمعروف الآن بالأرسنال والذى يعد من أبرز الفرق المهنية فى العالم.

أما **الفصل الثانى** فيتناول "كرة القدم العسكرية" فيدرس ظاهرة نمو كرة القدم فى الجيش البريطانى، بالاستعانة بسجلات وزارة الدفاع واتحاد الكرة، وأرشيف الفرق. ودراسة بعض الفرق عن كثب، واتحاد المهندسين الملكى لكرة القدم، وكذلك استخدام سجلات الفيالق العسكرية لفرق مختلفة من أنحاء الإمبراطورية. بالإضافة الى الاستعانة بمذكرات الجنود، وسجلات البحرية الملكية. وتم خلال هذا الفصل

استعراض الدور التاريخى للجيش البريطانى فى نشأة وتطور كرة القدم من حيث قيام وحداته وإداراته المختلفة بلعب كرة القدم بشكل رسمى وغير رسمى لمساعدة الجنود على تحمل واجباتهم العسكرية داخل البلاد وخارجها. وتشجيع الضباط بشكل رسمى إقامة مباريات بين المجندين بوصفها وسيلة لتعزيز الصحة البدنية، وتوطيد أواصر الصداقة، والتدريب على العمل الجماعى. وبلغت ذروة الاهتمام بكرة القدم بإنشاء وحدة إدارية فى الجيش البريطانى للتخطيط لبطولات كرة القدم، حتى إنه بحلول نهاية القرن التاسع عشر أيضا أنشأت القوات البحرية البريطانية، والبحرية الملكية، منظمات مماثلة داخل إدارتها، وأضحت الوحدات تواجه بعضها بعضا بشكل روتينى غير رسمى، ثم بات الأمر أكثر تنظيما وترتيبا. وتلى ذلك ظهور كرة القدم الدولية والتى بدأت بسفر أفضل اللاعبين الإنجليز إلى شمال إسكتلندا للعب من أجل الفخر، والاعتبارات الوطنية فى عام ١٨٧٢ كأول نموذج لكرة القدم الدولية، ولعبة كرة القدم فى العالم. وأشير فى نهاية الفصل إلى كرة القدم فى ظل الحرب العالمية الأولى والتى كانت بمثابة الصراع الأكثر تدميرا فى العالم، والتى لم تقض على كرة القدم فى بريطانيا أو القوات المسلحة، مستشهدا بتحول كرة القدم إلى جزء من وحدة المجتمع وثقافته.

يتناول **الفصل الثالث** الدور الذى لعبه الاستعمار البريطانى فى تطوير كرة القدم فى زنجبار، والهند، وهونج كونج، وسنغافورا، ونيوزيلندا، ومصر. فى محاولة للإجابة عن تساؤل مؤداه: إلى أى مدى عززت هذه الألعاب الرياضية من روح الوطنية، والمواقف المناهضة للاستعمار؟ وذلك من خلال استعراض وتوضيح وتحليل النموذج الذى بموجبه نشر البريطانيون كرة القدم عبر أنحاء الإمبراطورية البريطانية، ومقارنة هذا النموذج من الأفعال البريطانية مع مصر بغرض اختباره. وبغرض فهم هذا النموذج تم خلال هذا الفصل شرح الممارسات الاستعمارية البريطانية فى خمسة مواقع، أربعة منها ذات حضارات راسخة، وقد تم اختبار هذه المستعمرات نظرا

لأهميتها. وقد تم خلال هذا الفصل استعراض النماذج المختلفة التى استخدمتها بريطانيا فى إدارة مستعمراتها على نحو فعال، خاصة النموذج القائم على استخدام الحد الأدنى من القوة العسكرية، والحد الأقصى من المشاركة، وأدنى مستوى على أقل تقدير من المواطنين. وفى سبيل تحقيق ذلك أنشأ الإداريون الاستعماريون مدارس لأبناء المواطنين الأثرياء لتلقى التعليم على النمط الغربى وحصلوا فى النهاية على وظائف إدارية لمساعدة البريطانيين. كما تأثر كل من خدم فى الجيش وعمل فى المصانع والمزارع من خلال التعرض للنموذج البريطانى. ومن خلال هذا النموذج بالتحديد أضحى البريطانيون قادرين على خلق حالة من الاستقرار فى المستعمرات، خاصة تلك التى كان سكانها سلبيين إلى حد كبير تجاه الحكم الاستعمارى على الأقل لفترة من الزمن. فقد سمح هذا النموذج ليس فقط بأن تعمل المستعمرة بكفاءة، ولكنه عزز من حالة المواطنين، بحيث يكونوا قادرين على استيعاب بعض خصائص الثقافة البريطانية بما فى ذلك اللغة، واللهجة، ورؤية العالم، وحب كرة القدم.

أما **الفصل الرابع** "مصر البريطانية" فتم خلاله تناول الدور الذى لعبه البريطانيون فى مصر وتحديدا فى فترة ما قبل الحرب الأنجلو مصرية عام ١٨٨٢، وما بعدها. وكذلك عمل البريطانيين– دون قصد– على نمو الهوية القومية المناهضة للاستعمار، من خلال النزعة العنصرية البريطانية التى لم تسمح بتأسيس فرق كرة قدم مختلطة تجمع المصريين والبريطانيين، وقد ظهر فريق النادى "الأهلى" كناد اجتماعى للطلاب الوطنيين بهدف الاحتجاج على السلطة البريطانية الاستعمارية، كما أن فريق النادى هو من أول الفرق التى هزمت الجيش البريطانى فى بطولة كأس السلطان حسين بعد الحرب العالمية الأولى، وكان من شأن ذلك تعزيز مفاهيم القومية وتشجيع وتحفيز نمو الحركات القومية ضد الاستعمار. وكذلك تنمية حب كرة القدم فى مصر من خلال قيام الموظفين المدنيين البريطانيين، وقوات الجيش بتعليم المصريين لعبة كرة القدم، والتى سعى المصريون إلى التغلب على البريطانيين فيها كنوع من مقاومة

المستعمر المحتل، ومواكبة هذا من نمو للحركات القومية ضد الاستعمار. وقد تتبع الفصل مراحل تطور كرة القدم المصرية والتى باتت بحلول القرن العشرين عبر فرقها القومية سواء المدنية أو العسكرية أكثر قدرة على هزيمة الإنجليز أصحاب اللعبة، ومصدرا لفخر المصريين. وتم خلال الفصل التدليل على انتشار كرة القدم فى الثقافة المصرية من خلال الافتخار المستمر باحتراف لاعبين مصريين فى الدورى الإنجليزى قبل الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى كون مصر أول دولة إفريقية تتأهل لكأس العالم عام ١٩٣٤، وأول دولة إفريقية تشارك فى أولمبياد عام ١٩٣٦. كما تطرق الفصل أيضا إلى الدور الذى لعبته العمالة البريطانية الوافدة فى تنامى شعبية لعبة كرة القدم من خلال الأندية الاجتماعية والفرق التى اقاموها خلال فترة مكوثهم فى مصر، ومثال على ذلك فريق نادى السكة الحديد الذى تم إنشاؤه بواسطة عمال السكك الحديدية البريطانية، ولا يزال هذا الفريق مستمرا فى الدورى المصرى حتى الآن. كما تم فى هذا الفصل عقد مقارنات بين سياسات التعليم التى حرصت بريطانيا على تطبيقها فى كل من مصر والهند، والسياسة البريطانية المتبعة فى مصر والتى أدت إلى زيادة نوادى كرة القدم المصرية.

أما **الفصل الخامس** "لعبة مصرية" فيتناول نتائج عمل وثمار التنمية الاجتماعية والمؤسسات التعليمية التى وضعها البريطانيون خلال الاحتلال الذى أعقب الحرب الأنجلو مصرية، فضلا عن العديد من المشروعات الصناعية والزراعية. بالإضافة إلى دراسة التطور الفريد فى الهوية القومية المصرية والتى بدأت فى مطلع القرن العشرين. وذلك من خلال تحليل تطور لعبة كرة القدم فى مصر خلال الفترة الزمنية من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٦ للوقوف على نمو الفرق المصرية التى تنافست ضد الفرق البريطانية. وفى هذا الفصل تم اللجوء إلى سجلات ثلاث فرق مصرية بدأت فى إبان عصر الاحتلال – ومازلت تلعب حتى الآن– والوقوف على لمحة عامة عن تلك الفرق وهى نادى السكة الحديد والذى نشأ عام ١٩٠٣، والنادى الأهلى "الوطنى" الذى

نشأ عام ١٩٠٧، ونادى الزمالك "المختلط/ نادى فاروق" والذى أنشىء عام ١٩١١. بالإضافة إلى الفرق المصرية التى لعبت فى بطولة أولمبياد عام ١٩٣٣ وفى بطولة كاس العالم عام ١٩٣٤، وهى الفرق الإفريقية الأولى التى قامت بالمشاركة فى هذه البطولات وذلك بالرجوع إلى سجلات اللجنة الأولمبية الدولية وسجلات الفيفا والصحف الصادرة فى تلك الفترة، وكذلك مقابلات هيئة الإذاعة البريطانية BBC مع أول لاعبين مصريين لعبوا كرة القدم فى إنجلترا.

وتتناول خاتمة الكتاب نمو رياضة كرة القدم فى مصر بعد عام ١٩٥٦، وارتباطها بالحركات السياسية. وينظر الفصل فى الارتباط بين الحركات القومية المصرية التى لعبت دورها فى الماضى أمام المستعمر المحتل، وبين ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ وثورة الثلاثين من يونيو عام ٢٠١٣، كما تتعرض للدور الذى لعبته روابط مشجعى كرة القدم (الألتراس) فى تلك الأحداث.

وتنتهى خاتمة الكتاب بتحليل نهائى مفاده أن لعبة كرة القدم احتلت جزءا مهما من النظام القيمى والحياة الثقافية للبريطانيين، ومن منطلق هذه الحقيقة، فإن الإمبريالية من جميع الفئات سواء كانوا سياسيين أم عمالا أينما ذهبوا فى المستعمرات البريطانية جلبوا معهم كرة القدم. كما أن نظم التعليم البريطانية– التى تم جلبها للمستعمرات– ولعب اللعبة البريطانية كان لهما تأثير كبير على رؤية الطلاب الشباب لأنفسهم وللمستعمر، مما غير رؤيتهم للعالم. فقد حاول المستعمر البريطانى تغيير هوية السكان المحليين في المستعمرات من خلال تطوير قطاع منهم يشاركونهم قيمهم الثقافية ويتعاطفون مع أهدافهم ليكونوا مسايرين لهم فى أفعالهم، ولكن لم توجد أى رغبة لدى المستعمر لخلق قطاع من القوميين منفتحى الذهن يرون أنفسهم على قدم المساواة مع المستعمر، ويمكن أن يثبتوا ذلك فى ملاعب كرة القدم. ويمكن القول إن هذه النتيجة غير المقصودة قادت فى نهاية المطاف إلى نهاية السلطة الاستعمارية البريطانية فى مصر.